أثر فكر الاستشراق فى الأدب العربى المعاصر

دكتور/ نورالدين*

مقدمة

إن الاستشراق ظاهرة فكرية لعبت دورا خطيرا فى الفكر والأدب العربيين قديما وحديثا، فقديما أخذ الاستشراق العلوم والآداب والفنون عن العرب، ونقلها إلى الغرب حيث أقام نهضته العارمة على دعائمها، وبلغ ما بلغه الآن من التقدم والرقى والازدهار، وحديثا أخذ الاستشراق الأفكار والنظريات، والآراء الغربية المؤسسة على ثقافة العرب فردها إليهم مؤثرا بذلك فى نهضتهم المعاصرة أبلغ التأثير.

والأمر الأخير الذى هو "أثر الأفكار من الاستشراق فى الأدب العربى المعاصر "هو الموضوع الذي اخترته فى هذه المقالة العلمية .وهذه المقالة تتناول النواحى الآتية :مقدمة، والبحث، والخلاصة .والبحث يضمن مفهوم الأدب والاستشراق، ودوافعه، ووسائله، وميادين تأثيره، وطبيعة تأثيره.

ب .البحث

١. مفهوم الأدب

كلمة أدب من الكلمات التى تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة .وقد اختلفت عليها معان متقاربة حتى أخذت معناها الذي يتباهر إلى أذهاننا اليوم، وهو كلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين، سواء أكان شعرا أو نثرا.

ففي العصر الجاهلي، استعملت كلمة أدب بمعنى الدعوة إلى الطعام، وهي خصلة حميدة وخلق فاضل، ولذلك نجد طرفة بن العبد يفتخر فيقول :

---

* قسم اللغة العربية وآدابها ــ كلية اللغات والفنون ــ جامعة جاكرتا الحكومية ــ أندونيسيا.

نحن في المشتاة ندعو الجفلى　　لا ترى الأدب فينا ينتقر

ودلت كلمة أدب في العصر الإسلامي على التهذيب والتربية، كما ورد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه قال :أدّبني ربي فأحسن تأديبي، وربيت في بني سعد.

وهناك تقارب بين المعنى الذي استخدمت فيه في الجاهلية والإسلام، فالتهذيب النفسي واللساني اللذين برزا في مدلولها في العصر الإسلامي مظهر من مظاهر الخلق الحسن الذي نقبح عنه الدعوة إلى الطعام كما استعملت في العصر الجاهلي.

وحينما نصل إلى العصر الأموي، نجد أن الكلمة ضمت إلى معنى التهذيب الخلقي واللساني معنى آخر هو إطلاقها على المعلمين الذين يؤدبون أولاد الخلفاء أو غيرهم، فسمي هؤلاء بالمؤدبين، وفي هذا المعنى قال نابغة بني ثبيان:

إن الغلام مطيع من يؤدّبه　　ولا يطيعك ذو شيب بتأديب

ولما جاء العصر العباسي، اتسعت كلمة أدب فأطلقت على الأشعار والأخبار وعلى الأحاديث والوصايا والخطب، لما لها من أثر في تهذيب الأخلاق وتقويم اللسان، فالمطالع لها يتأدب بها. أي يأخذ نفسه بما فيها من آداب. وعلى هذا استقر مدلول الكلمة وألفت كتب في الأدب تجمع هذه الأنواع مثل :البيان والتبيين للجاحظ، والكامل في اللغة والأدب للمبرد، والأمالي لأبي علي القالي وغيرها(عبد العزيز بن محمد فيصل، ١٤٠٥ هـ).

ومن خلال العرض السابق نستطيع أن نقول إن الأدب له معنيان :معنى عام، ومعنى خاص .والمعنى العام للأدب، هو يعني الإنتاج الفكري العام للأمة، فأدب أمة معينة يعني كل ما أنتجه أبناء هذه الأمة في شتى صروب العلم والمعرفة .أما الأدب بمعناه الخاص فهو الفكرة الجميلة في العبارة الجميلة .فالأدب بهذا المعنى لون من ألوان التعبير الفني الخلاق عن الأفكار والمعاني والمشكلات .أو هو مجموع الآثار النثرية والشعرية المتميزة بجمال الشكل والصياغة والمعبرة عن أفكار ذات قيمة باقية(علي أحمد مدكور، ١٩٨٤)

٢ مفهوم الاستشراق

إن كلمة الاستشراق مشتقة من شرق، يقال "شرقت الشمس شرقا وشروقا إذا طلعت "(لويس مألوف، ٣٨٤) .وفي مفهومه العلمي أن الاستشراق هو طلب علوم الشرق ولغاتهم، والمستشرق هو عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه.

وأما مفهوم الاستشراق فى آراء علماء العرب فكما يلى :

يرى أحمد حسن الزيات أن الاستشراق هو دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته(أحمد حسن الزيات، ١٩٨٤) ويصف محمد عبد الغنى حسن للاستشراق أنه اشتغال غير المستشرقين بدراسة لغات الشرق وحضاراته وفلسفاته وديانات وروحانياته وأثر ذلك فى تطور البناء الحضارى للعالم كله (محمد عبد الغنى حسن،٨٩). وأما المستشرق عند أحمد الإسكندرى وأحمد أمين فهو كل من تجرد من أهل الغرب لدراسة بعض اللغات الشرقية، وتقصى آدابها طلبا لتعرف شأن أمة أو أمم شرقية من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها وديانتها أو علومها وآدابها، أو غي ركل ذلك من مقومات الأمم (أحمد الإسكندرى وأحمد أمين،١٩٣٤) والمستشرق عند علي حسن الخربوطلى –كما نقله أحمد سمايلوفتش–هو عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية، فلا بد أن يتوافر فى هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها فى العالم المتخصص المتعمق حتى ينتج ويفيد البشرية والحضارة بإنتاجه العلمي، ولا بد أن ينتمى هذا العالم إلى الغربي وقد تكون الدراسات الشرقية التى يقوم بها المستشرق تاريخا أو فلسفة أو آثارا أو اقتصادا ولكم تربط بالشرق (أحمد سمايلوفتش،١٩٧٤).

اعتمادا على التعريفات السابقة أن الاستشراق هو علم يحاول أصحابه دراسة الشرق وكل ما يتعلق به من لغات وآداب ومعتقدات وعلوم وفنون وما شاكلها .وأما المستشرق فعالم غربي يهتم بالدراسة الشرقية على الإطلاق، ويجب أن يكون عالما متخصصا غربيا أصلا أو انتماء وأن تتعلق دراسته التى يقوم بها بالشرق سواء كانت فلسفة أو اقتصادا أو حضارة أو آدابا أو آثارة.

٣. دوافع الاستشراق

إن اهتمام الغرب وعنايته للشرق لها الدوافع، منها:

أ) الدوافع النفسية

إن الإنسان هو كائن حي ومخلوق مفكر .وطبيعة الإنسان الرغبة فى المعرفة والإطلاع للتعرف على حياة الآخرين وأفكارهم وأخبارهم وأسرارهم وخباياهم، وولعه الكامن فى نفسه للسيطرة على الآخرين، وجعلهم يتعلقون به ورغبته الشديدة فى أن تعتنق غيره ما يعتنقه هو من عقائد وأفكار وسياسة وفلسفة، وميله إلى التفوق على غيره بطريقة أو بأخرى .ويتطلع الإنسان

لإشباع هذه الرغبات بالاستمرار فى السفر والرحلات عبر الأراضى والبحار .ولذلك كله كان للرحلات التى يقوم بها الأوربيون فى بلاد الشرق أثر بالغ فى تاريخ الاستشراق، ودور لايستهان به فى إيقاظ الرغبة فى مشاهدة تلك البلاد، ودراسة كل ما يتعلق بتاريخها وحضارتها .

ب) الدوافع الاقتصادية

إن الدوافع الاقتصادية تدفع الإنسان لالتماس سبل العيش عبر الأراضى والبحار فى جميع بقاع العالم وفى سبيل وصول الإنسان إلى هذا الهدف يشهر سلاحه ويستعين بقوته وبطشه ما وجد لذلك سبيلا، يأخذ ويحتل، ويسهب وينهب ويسيطر ويستعبد ويقامر بحياة الآخرين .لذلك كانت النواحى الاقتصادية من أشد الدوافع فى اندفاع الغرب لتعلم لغات الشرق ودراسته.

ومن ثم كان العالم الإسلامى مجالا اقتصاديا ذا أهمية قصوي بالنسبة لعدد كبير من التجار الأوربيين وتبع ذلك بالضرورة عناية الغربيين بدراسة علومه وثقافته وفلسفته .ومن الجلي أن لهذه الدوافع دورا مهما فى انتشار الاستشراق ومعاهده ومراكزه فى أنحاء العالم .

ج) الدوافع الأيديولوجية

إن الدوافع الأيديولوجية خطيرة ونافعة إذ تدفع الإنسان إلى الصراع الفكرى المتواصل الذى لا يهدأ ولا يستكين لا انقطاع فيه، وتلك سنة الحياة التى تدفع الإنسان للصراع حتى مع أخيه وصديقه وعدوه وعشيرته ومجتمعه .وتمكن هذه الدوافع فى وجود الأيديولوجيات المختلفة، أيديولوجية الأفراد والجماعات والدول والحكومات والأجناس والقوميات .وكل منها تسعى لتفرض نفسها على غيرها وتسيطر عليه ويهدف صاحبها إلى أن يكون رئيسا والآخر مرؤوسا، وينصب نفسه سيدا وغيره مسودا، ويعيش غنيا ويترك الفقير يموت جوعا.

وقد كانت هذه الأسباب الأيديولوجية دفعا قويا فى زحف الغرب على الشرق وتعلم لغاته وبحث آثاره ومحاربة أفكاره وأيديولوجيته، ولقد تبلور هذا كله فى غزو الغرب الفكرى الذى كان يرمى إلى إضعاف الشرق عامة والعالم الأيديولوجية دفعا قويا فى زحف الغرب على الشرق وتعلم لغاته وبحث آثاره ومحاربة أفكاره وأيديولوجيته، ولقد تبلور هذا كله فى غزو الغرب الفكرى الذى كان يرمى إلى إضعاف الشرق عامة والعالم الإسلامي خاصة ليقتلعه من جذوره ويزيله من وجوده .وما من شك فى أن الدوافع الأيديولوجية كانت إحدى بواعث الاستشراق القوية وانتشار آفاقه فى أنحاء البلاد الأوربية وبين مواطنيها .

د) الدوافع الاستعمارية

وهي بلا شك تمثل النقطة الخطرة فى العلاقات بين الشرق والغرب ومحاولة الثانى السيطرة على الأول وسحق قوته واحتلال أرضه واستغلال مقدراته .وهذه الدوافع ازدادت عمقا وشمولا من اندفاع العرب وسيطرة الإسلام على الإمبراطوريات السابقة ووصوله إلى أوربا واستقراره فى بعض أراضيها .عندما رأى الغرب كل ما شرع يعد قوته لخوض معركة فاصلة معه والسيطرة عليه، فأخذ يتعلم لغته وآدابه وحضارته وتاريخه لكى يتفوق عليه ثم قام بمغامرات صليبية معروفة فحارب الإسلام قروناً ولم ينتصر .

ويعترف الاستعمار نفسه أن أشد ما يخشاه هو الإسلام وانتشاره لأن له قوته وجلاله وأنه الوحيد بين الأديان والمذاهب .وكان لابد للغرب المستعمر من معرفة ما يمكن معرفته من أحوال هذا الشرق ومداخل السيطرة عليه والاستبداد به.

هـ) الدوافع العلمية

إن هذه الدوافع لها شأن عظيم فى حركة الاستشراق لأن العالم الإسلامى يعد كنزا حضاريا لا نظير له فى بقاع العالم الأخرى، ففيه شيدت حضارات، ونشأت لغات وفلسفات، وولدت علوم وفنون، ونزلت شرائع وأديان .وقد أثارت هذه القيم علماء الغرب فاهتموا بدراستها واكتشاف أسرارها .وتحقيقا لهذه الغايات السامية أيقن الغرب أنه لابد له أولا إذا أراد النهوض أن يدرس لغات الشرق وآدابها وحضارتها وخصوصا حضارة الإسلام .فأقبل المستشرقون على هذه الدراسات بنهم وشغف وانطلق كثير منهم إلى آفاق بناءة استفاد منها الشرق والغرب على حد سواء، ومن الجلى أن الباعث على دراسة اللغات الشرقية فى أول الأمر كان دينيا وحربيا، ثم تحول إلى أغراض علمية هدفها كشف ما تكنه العلوم والفنون الشرقية من كنوز ثمينة، وبتقدم هذه الدراسات اتصل حبل المودة بين الشرق والغرب وتوثقت العلاقات العلمية بين الدول الشرقية والغربية.

٤. وسائل تأثير الاستشراق

إن أثر الاستشراق فى الأدب العربى المعاصر له عوامل رئيسية وهى :

أ) إرسال البعثات العربية إلى أوربا

لما تولى محمد علي عرش مصر ظل يرقب الصراع الذى كان يدور فيها بين الأتراك والإنجليز والممالك، وأيقن أن مستقبل البلد يتعلق بقوة الشعب لا بهذه القوى الثلاث، فقد رأى

محمد علي أن مصر تحتاج إلى أساتذة مختصين عالمين بعلوم الغرب وثقافته فأرسل الشباب إلى الغرب ليتقنوا علومهم ولغاتهم وفنونهم واستطاع أن يكوّن جيشاً من العلماء الذين أسهموا بجدية وإخلاص فى بناء مصر الحديثة .وكانت البعثة العلمية الأولى مؤلفة من أربعة وأربعين شابا ذهبوا ليتخصصوا فى شتى العلوم والفنون من حقوق، وعلوم سياسية، وهندسة حربية، وطب، وزراعة، وغيرها مما استلزمته النهضة الحديثة .وكان إمام البعثة الشيخ رفاعة الطهطاوى(١٨٠١-١٨٧١) (شوقى ضيف،١٩٦١).

وقد كان لهذه البعثات كلها أثر بالغ فى تقدم مصر ونهضتها، وإرسال نور العلم دافقا قويا فى ربوعها، كما كان لها أعظم الفضل فى إحياء اللغة، وجعلها مسايرة للعلم الحديث، بما ترجم أعضاؤها من كتب وما أدخلوه من مصطلحات، وما ألفوه فى شتى نواحى العلم .

ب) حضور العرب فى مؤتمر الاستشراق

لقد بدأت دوائر الاستشراق تعدد مؤتمراتها الدولية منذ مائة عام .وقد عقد آخرها فى يوليو عام ١٩٧٣ م .بمناسبة احتفالها بالعيد المئوى، حيث "حضره أربعة آلاف عضو، وكان من توصياته إنشاء اتحادات جديدة فرعية .واتحاد للغات القديمة يكون مقره القاهرة واتحاد للدراسات الإسلامية وآخر للدراسات الهندسية ."وخلال هذا القرن من الومان حضر هذه المؤتمرات عدد كبير من علماء العرب الذين قدموا بحوثهم أمام أعضائها، وشاركوا فى أعمالها، وناقشوا مسائلها التى أثارها أصحابها حول الإسلام والقرآن، والرسول صلى الله عليه وسلم، واللغة العربية، وتاريخ العرب وآدابهم ثم عاجوا بانطباعاتهم إلى بلادهم.

ومما لاشك فيه أن الذين يحضرون مثل هذه المؤتمرات لابد أن يتأثروا بما وبما يدور فيها من مساجلات وأفكار ودراسات وخاصة أولئك الذين يحضرونها أكثر من مرة مثل كرد على وأمين الخولى، وإبراهيم مدكور وغيرهم.

ج) الاستعانة بعلماء الاستشراق فى التدريس بالجامعات العربية

بعد أن عرفت بعض الأقطار العربية فضل الاستشراق حاولت أن تستحضر عددا من علمائه للتدريس فى جامعاتها .وأول دولة عربية قامت بذلك هي مصر، فهى سباقة فى كل شئ، وكان من أولئك الذين استدعتهم المستشرق الإيطالى جويدى .وقد انتدبته أستاذا بها سنة ١٩٠٨ ، ومنهم نالينو الإيطالى الذى كان يدعى سنة ١٩٠٩ لإلقاء بعض المحاضرات، وفييت الفرنسي،

وقد انتدبته أستاذا سنة ١٩١٢ وكانوا جميعا يلقون محاضراتهم باللغة العربية .

والدليل على تأثير هؤلاء المستشرقين فى الأدب العربى المعاصر أن رواده من الأدباء والفلاسفة والنقاد فى العالم العربى الحديث قد كانوا من بين أولئك الذين تعلموا على أيدى المستشرقين وتحت إشرافهم .

د) ترجمة أعمال الاستشراق إلى العربية

قد ذكر سابقا أن محمد علي قد قام بإرسال البعثات إلى أوربا رغبة منه فى إيجاد طبقة من المقتدرين على تعليم المصريين، وكان لابد للتعليم من نقل تلك العلوم التى تعلمها رجال البعثات فى أوربا ليستطيع أهل البلاد دراستها بلغتهم .ولذلك فقد اهتم محمد علي بالترجمة اهتماما كبيرا.

ويروى عنه أنه لما عاد أول بعث إلى مصر سلم كل واحد منهم كتابا بالفرنسية فى المادة التى درسها بأوربا وطالبه بترجمته إلى اللغة التركية، وكانت لاتزال حينذاك اللغة الرسمية للبلاد . وقد نهضت الترجمة فى مصر عندما أسس محمد علي مدرسة الألسن فى سنة ١٨٣٦ م .وعهد بالإشراف عليها لرفاعة الطهطاوى .وكان يدرس فى هذه المدرسة آداب العربية واللغات الأجنبية وعلوم التاريخ والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية .وكان نهج المدرسة فى الترجمة علميا ومقيدا (أحمد سمايلوفتش، ١٩٧٤).

٥. ميادين تأثير الاستشراق

إن الاستشراق يعنى عناية هامة بالتراث العربي الإسلامي ومدى عنايته هذه فى نهضة الأدب العربي فى العصر الحديث .ومما لا شك فيه ان للاستشراق أثرا كبيرا فى إحياء اللغة العربية وآدابها ويرجع أثر الاستشراق فى هذا الميدان جملة إلى العناصر الرئيسية الثلاثة، وهي:

أ) تحقيق المخطوطات

إن التراث العربي الإسلامي يمكننا أن نقول إنه نوعان :مطبوع ومخطوط أو منشور ومستور. من بين التراث آلاف مؤلفة منه مطبوعة، وآلاف مؤلفة منه مخطوطة .ومن هنا كنا على حق عندما أكدنا آنفا أن الحضارة العربية الإسلامية بدأت تأخذ مكانها العالمى من جديد منذ بداية القرن العشرين لما بدأت تعلن عن إثرها الثقافى الأصيل، المنشور والمستور معا، ومما لا شك فيه ان إثرها المنشور يؤكد إثرها المستور .إذن، فما أمر الاستشراق فى ذلك وكيف كان أثره فى أدبنا المعاصر بالذات؟

إن الاستشراق قد لعب دورا مهما مؤثرا لايمكن إغفاله أو إنكاره، إذ وضع علماؤه

القواعد الأساسية للسير عليها فى نشر المخطوطات وتحقيقها معتمدين على المبادئ التى توصل إليها علماء الآداب الكلاسيكية فى أواسط القرن التاسع عشر .وقد استخدم المستشرقون هذه المبادئ فى إحياء الكتب العربية وإن لم يؤلف فيها تأليفا خاصا، إلى أن جاء المستشرق برجستراسر فألف فى هذا الفن من خلال محاضراته التى ألقاها على طلبة التخصص بكلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٢(أحمد سمايلوفتش، ١٩٧٤).

وقد تحدث بعده بسنين محمد مندور عن هذا الموضوع، فناقش أصوله فى التحقيق من خلال نقده لكتاب "قوانين الدواوين للأسعد بن ماتى الوزير الأيوبى المتوفى ٦٠٦ هـ والذى قام بتحقيقه عزيز سوريال عطية ونشرته الجمعية الزراعية، حيث درس الاتجاه العام لأصول التحقيق باحثا فى أثناء ذلك مشكلة المصادر المباشرة وغير المباشرة، ثم قراءة النص وغيرها من المعضلات العلمية التى تتعلق بهذه الأصول.

وأصدر بعده بلاشير وسوفاجيه كتابهما بالفرنسية فى هذا الموضوع بعنوان" :قواعد نشر النصوص العربية وترجمتها ."ونشر بعدهم عبد السلام هارون مؤلفه فى الموضوع نفسه بعنوان ": تحقيق النصوص ونشرها "الذى قال عنه إنه أول كتاب عربى فى مثل هذا الفن يشرح مناهجه ويعالج معضلته .وبعده أصدرت عائشة عبد الرحمن "مقدمة فى المنهج "تناولت فيه بعض قضايا نشر النصوص وتحقيق المخطوطات .

ب) دراسة الأدب

إن أبرز النواحى لأثر الاستشراق فى الأدب العربى المعاصر تتجلى فى :

١) التأريخ للعصور الأدبية

لقد حاول علماء الاستشراق أن يحيطوا بالأدب العربى إحاطة كاملة فبحثوا فى كل ما يتعلق به معتبرين تاريخه أساسا لذلك .ومن هنا واجهوا معضلة تأريخه ونشأته وتكوينه ومرتلته وتطوراته .وأرادوا أن يحلوها، ولكى يقوموا بذلك كان عليهم أن يبدأوا دراستهم للأدب العربى على أساس جديد .وهكذا ذهبوا فقسموا هذا الأدب إلى عصور.

ومن هنا يقسم بروكلمان تاريخ الأدب العربى إلى خمسة عصور رئيسية وهي:

١. عصر ما قبل الإسلام، ويبدأ من نقطة لايمكن تحديدها الآن حتى ظهور الإسلام.
٢. عصرظهور الإسلام حتى نهاية الأمويين عام ٧٥٠ م.

٣. عصرالدولة العباسية حتى نهايتها على أيدى المغول عام ١٢٥٨ م

٤. عصر ما بعد سقوط بغداد حتى مجيء بونابرت إلى مصر عام ١٧٩٨م .

٥. عصر البعث الجديد فى القرن الماضى حتى العصر الحاضر.

ويختلف نيكلسون عنه فيقسم تاريخ الأدب العربى إلى ستة عصور رئيسية وهي:

١. عصر ما قبل الإسلام من نقطة زمنية يصعب تحديدها حتى ظهور الإسلام.

٢. عصر محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم.

٣. عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية.

٤. عصر الدولة العباسية وخلفائها.

٥. عصر العرب فى أوربا ودورهم فيها.

٦. عصر ما بعد الفتح المغولى حتى عصرنا الحاضر.

ويذهب نالينو فيقسم تاريخ الأدب العربى إلى ستة عصور وهي:

١. العصر الجاهلى مبتدئا بزمن يستحيل تحديده حتى ظهور الإسلام.

٢. العصر الأدب الإسلامى مبتدئا بظهور الإسلام ومنتهيا بسقوط الدولة الأموية عام٧٥٠.

٣. العصر العباسى الأول يستمر من سقوط الأمويين حتى عام ١٠٥٨ م.

٤. العصر العباسي الثانى ويبدأ من عام ١٠٥٨م ويستمر حتى سقوط بغداد على أيدى المغول عام ١٢٥٨ م .

٥. عصر الانحطاط ويبدأ من عام ١٢٥٨ م حتى عام ١٨٠٥ م .

٦. عصر البعث الجديد ويبدأ من جلوس محمد على بك على عرش مصر عام ١٨٠٥م ويستمر حتى الآن.

ولو أخذنا أيا من الدارسين العرب المحدثين للأدب العربى وتاريخه لبدا لنا أثر الاستشراق فى هذا المجال واضحا وجليا .وإذا كان أثر الاستشراق فى الأدب العربى المعاصر عظيما بحله مشكلة التحقيب فى تاريخه، فقد ترتب على ذلك أثره البالغ أيضا بحله مشكلة التبويب، إذ قام علماؤه المستشرقون بتنظيم العلوم العربية وتنسيق مادتها على أساس علمى منهجى سليم.

٢) تأليف دائرة المعارف الإسلامية

إن ظهور دائرة المعارف الإسلامية قد كان بفضل جهد بذله علماء الاستشراق فى العالم بأسره، وهى أكبر عمل قاموا به على الإطلاق .وقد استهدفوا بإخراجها أن يجمعوا معلوماتهم وأبحاثهم وأفكارهم فى مؤلف واحد شامل يحيط بكل ما يتعلق بالإسلام والعرب والقرآن، ولم يأت مؤلفهم هذا اعتباطا وإنما أعدوا له قرابة عشرين سنة أو يزيد، إذ بدأت فكرته تراودهم منذ نهاية القرن التاسع عشر، حيث أخذوا يجمعون المواد، ويوزعون جمعها على العلماء ويرتبونها حسب الهجاء.

وموضوعها تعالج جميع الموضوعات التى تتعلق بالإسلام والعرب من المعارف عن البلاد العربية الإسلامية وشعوبها، وأديانها ولغاتها، وأعلامها وأحداثها التاريخية وأحوالها الاجتماعية وأمورها الاقتصادية ومسائلها الفكرية والثقافية والأدبية وغيرها.

أما أثرها فى الأدب فيبدوا فى كل ما ألفه العلماء العرب المحدثون بعد إصدارها، إذ كلما نجد عالما من علمائهم فى العربيات والإسلاميات إلا ورجع إليها واعتمد عليها .والدليل على أثرها فى الأدب العربي المعاصر البحوث الشهيرة التى قام بها أحمد أمين وإسماعيل مظهر وعبد الوهاب عزام وغيرهم الذين أشادوا بأهميتها واعترفوا بأثرها، ورحبوا بترجمتها وأسهموا بإضافتها إلى تلك التراث العربى الإسلامي الخالد .

٣) البحث فى تأثير الأدب العربي

إن الأدب العربي أطل على منافذ الثقافات العالمية وأشرف على منابعها يستلهمها ويلهمها أجل الآيات والروائع، يؤثر فيها فى القديم والحديث ويتأثر بها، وذلك فى عصور نهضته وازدهاره .ومن الجلي أن التأثر بين أدب وآخر قد يكون فى الجنس الأدبى أو فى المواقف الأدبية، أو فى الأفكار والموضوعات .وما من شك فى أن هذا التأثر قد ازداد بولع المسلمين بالعلوم والآداب والفنون وشغفهم بها، حتى كان من جملة إفضال تميزهم عليها جميعا أنهم جمعوا أثمن ما فيها من لغات الشعوب التى دانت لهم، وأضافوا إليها وتقدموا بها إلى الأمام.

ويعلم أن انتقال الثقافات القديمة إلى العرب كان فى أغلب الأحيان على أيدى اليونان لأنهم عندما جاءوا كانت العلوم قد اجتمع معظمها بتفاعل العناصر المختلفة لدى هؤلاء الذين غربلوها ونظموها ورقوها .وأن العرب قد تأثروا بالعلماء اليونانيين الذين ألفوا فى العلوم كالطب

والفلك والرياضيات والفلسفة أكثر من تأثرهم بالأدباء اليونانيين وشعرائهم .

٦. طبيعة تأثير الاستشراق

إن أثر الاستشراق فى الأدب العربى الحديث يرجع إلى جانبين مهمين :جانب منهجي وجانب موضوعي .أما أثره من الناحية المنهجية فقد استطاع الاستشراق أن يوجه علماء العرب المحدثين إلى تحقيق مخطوطاتهم، وإحياء تراثهم، وتأريخ آدابهم ويحملهم على الاهتمام بمعاجمهم، وتنظيم مباحثهم، والإحاطة بأعلامهم والبحث فى علومهم والنفاذ إلى تأثرهم وتأثيرهم، وتفهم مكانتهم فى الفكر العالمى.

وهكذا درس العرب المحدثون أدبهم على نهج بروكلمان، ونالينو، ونيكولسن، وكراتشكوفسكى، وغيرهم، حتى لا تكاد تخلو جامعة عربية، بل جامعة إسلامية ولا باحث عربي فى الفكر العربي وثقافته، بل باحث إسلامي فى الفكر الإسلامي وحضارته من أثر هؤلاء وطريقتهم ومنهجهم .

أما أثره من الناحية الموضوعية قد أثار المستشرقون فى العالم العربي مسائل كثيرة أثارت اهتمام عدد من علماء العرب المحدثين فكانت موضوع مؤلفاتهم وبحوثهم ودراساتهم ولن نذهب أبعد من القرن التاسع عشر، حيث "كان لقاء الطهطاوى مع المدرسة الاستشراقية الفرنسية واتصاله الدائم بعميد المستشرقين الأوربيين البارون سلفستردى ساس(١٧٥٨-١٨٣٨) وتلاميذه أول لقاء للعقل العربى مع دراسات المستشرقين الفرنسيين ولقد أثار الجانبى الدينى والعلمى عند هؤلاء المستشرقين اهتمام الطهطاوى"(أحمد سمايلوفتش، ١٩٧٤).

وكل من يقرأ كتابه "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز "يلاحظ هذا كله بوضوح إذ عدد الطهطاوى فيه بعض الكتب العربية مثل "تقويم البلدان "و"نزهة المشتاق "وغيرهما، التى طبعت فى أوربا قبل ذهابه إليها أو خلال وجوده فيها .ويتضح أن الطهطاوى عرف كثيرا من الكتب العربية أثناء إقامته فى باريس، وهى الكتب التى اهتم بها المستشرقون الأوربيون فنشروا جزءا منها أو نشروها أو ترجموها، وبحثوا مضمونها وبهذا عادت رحلة الطهطاوى فى باريس بعدة ثمار علمية منها معرفته بجهود المستشرقين فى نشر التراث العربى .وعرف الطهطاوى دراسات المستشرقين فى اللغة العربية وآدابها وخصص عدة صفحات من كتابه لجهود دى ساسى فى التراث العربى.

إن الدراسات الأدبية وتاريخ الأدب العربي بصورته اليوم هي أثر من آثار المستشرقين، فالكتب العربية مثل "تاريخ آداب اللغة العربية "و "تاريخ التمدن الإسلامي "لجورجي زيدان قد اتضح فيها أثر الاستشراق، فجورجي زيدان بمعرفته للغات وإطلاعه على المناهج الحديثة كان أشبه شئ بهمزة وصل بين الحركات العلمية العربية الناهضة وحركة الاستشراق المتدفقة النشاط في أوربا وأمريكا .واتصلت العلاقة بينه وبين أعلام المستشرقين مثل تيودور نولد كله، ويوليوس فلهاوزن، ومارجوليوث، ووليام رايث وغيرهم .وكان معظم هؤلاء يفدون على القاهرة للدراسة أو البحث عن المخطوطات أو لنشر بعض ما أعدوا من مخطوطات عربية، فاتصلوا بجورجي زيدان وأخذوا عنه وأخذ عنهم، ووجدوه يبحث على أسلوبهم مع تفوقه عليهم في العلم بالعربية .

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن المستشرقين قد تأثروا بجورجي زيدان، كما تأثر هو بهم، وعلاوة من الاستدلال على تأثر جورجي زيدان بالاستشراق أن نلتفت الأنظار إلى اعترافه شخصيا بذلك عندما أعلن في بداية مؤلفه "تاريخ آداب اللغة العربية "عن أسماء الكتب الألمانية، و الإنجليزية، والفرنسية التي أخذ منها .فإن المنهج الجديد في "تاريخ آداب اللغة العربية "الذي ارتاده زيدان لأول مرة مقتفيا أثر جماعة من علماء الاستشراق، قد سار عليه بعده في القرن العشرين جماعة من أساتذة الأدب العربي والمؤلفين والباحثين .

المراجع والمصادر

١- أحمد الإسكندري وأحمد أمين، المفصل في تاريخ الأدب العربي :القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٣٤

٢- أحمد حسن الزيات، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة :دار نهضة مصر ١٩٨٤

٣- أحمد حسن الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مطبعة مصر،١٩٦٠

٤- أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، رسالة الدكتوراه، ١٩٧٤

٥- شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، القاهرة: دار المعارف، دت

٦- جودت الركابي، الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، دمشق :دار الفكر، ١٩٨٢

٧- عبد العزيز بن محمد الفيصل، الأدب العربي وتاريخه، الرياض: جامعة الإمام محمد بن السعود الإسلامية، ١٤٠٥ هـ

٨- علي أحمد مدكور، تدريس فنون اللغة العربية، الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٤

٩- لويس مألوف، المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، المكتبة الشرقية، ١٩٨٦